تاريخ الفن الإسلامي

تقدمة :

تمتاز منطقة الحضارة العربية التي تمتد من المحيط إلى الخليج بأن لدى شعوبها فلسفة روحية خاصة تختلف عن فلسفة الاغريق والرومان وتنعكس على فنونهم فتطبعها بطابع خاص مميز، ولما افلح المسلمون في توحيد هذه المنطقة وتخليصها من الاستعمار الساساني والروماني أحست هذه الأقاليم أول مرة في تاريخها الطويل بأنها تكون وحدة حضارية متكاملة ، وأصبحت هذه الحضارة التي تبلورت في ظل الإسلام تسمى حضارية متكاملة. وظلت مزدهرة ت تشع بنورها في العالم وتنير ظلماته إلى أن حاول الصليبيون القضاء عليها أيام صلاح الدين فالاتراك في القرن السادس عشر.

إن للشرق فلسفته الخاصة التي تنظر إلى الأنسان على انه جزء من هذا الكون الواسع ، وهي تختلف تماما عن النظرة الغربية التي تنظر إليه على إنه محور هذا الوجود فكان الفنان الشرقي ينظر غالبا إلى الإنسان والحيوان والنبات كعناصر فنية يحورها وينسقها بحيث تعبر عن أفكار وأحاسيس وتحقق الغرض الفني الذي يقصده دون النظر إلى أشكالها الطبيعية . **<u>شخصية الفن الإسلامي</u>** :-كانت أول مظاهر الشخصية الإسلامية تأكيد الفلسفة الشرقية من أن الإنسان جزء من هذا الكون الواسع وأن القدرة الإلهية المسيطرة على هذا الوجود .وتبلورت شخصية الفن الإسلامي وإرادته الجديدة في ظواهر هامة تمت بطريقة تلقائية داخل إطار الفلسفة الشرقية العامة ، والتي اثرت بخصائص هذا الفن الاصيل.

خصائص الفنون الإسلامية

الفرق بين فن وفن هو فرق الانتماء والتعبير عن حضارات مختلفة ..فالفن الروماني مثلاً به كل سمات الحضارة الرومانية التي تعتبر حضارة القوة الجسدية في المقام الأول.. وفي الفن الإغريقي نلمح الفكر الفلسفي الذي هو عصب تلك الحضارة.. وكذلك الفن الإسلامي يعد من أنقى وأدق صور التعبير عن الحضارة الإسلامية.. وكونه المعبر عن هذه الحضارة هو ما يعطيه هذه الصفة.. صفة "الإسلامية".

فالفن الإسلامي في مصر أو الهند أو العراق هو في النهاية "فن إسلامي" حتى وإن كان الفنان في بعض الأحيان غير مسلم.. لأنه بالإضافة إلى تعبيره عن ذاته وعن بيئته – وهذا ضروري وموجود– فإنه يعبر عن الأصيل والثابت والهام في الحضارة التي ينتمي إليها ..بصرف النظر عن انتمائه العرقي أو الديني أو الجنسي..

وفيما يلي نستعرض بعض أهم الخصائص التي تميز بها هذا الفن الأصيل.

التجريد والموسيقية

وهما من أبرز صفات الفن الإسلامي فالقيمة الجوهرية الكامنة في الفن الإسلامي هي إيقاعه وتجريده وما يصاحب ذلك من إحساس موسيقي رائع لا يجاريه فيه أي فن آخر، ولا شك أن هذا الاتجاه مرده إلى التصور الإسلامي للعالم والإنسان والله ومن أجل ذلك لم تكن وظيفة الفن الإسلامي نقل المرئي بل إظهار ما هو غير مرئي، ومحاولة الإحساس بالقوانين

الرياضية التي تحكم هذا الوجود. وقد وصلت قمة الإيقاع الموسيقي في الفنون الإسلامية ذروتها في العمارة الأندلسية المغربية حيث تتجاوب أقواس العقود مع سائر العناصر المعمارية، وأحواض المياه والأشجار والمناظر التي تحيط بالمكان حيث يصبح المبنى وكأنه نبت من الأرض كما ينبت الشجر والنخيل.

احد القصور الاندلسية

كراهية تصوير الكائنات الحية

ويرجع ذلك إلى الرغبة في البعد عن المظاهر الوثنية فقد جاء الإسلام ليقضي على الوثنية ممثلة في عبادة الأشخاص والأصنام على إن هذه الكراهية أخذت تتلاشى بالتدرج مع زيادة الوعي بحقائق العقيدة الإسلامية وظهرت الرسوم الجدارية على كثير من الأعمال الفنية كالتحف المختلفة وفي الرسوم الجدارية على انه مما يلفت النظر زخارف المصاحف والمساجد إنها ظلت خالية من العناصر الآدمية والحيوانية.

شاع رسم وتصوير الكائنات الحية في المنطقة العربية قبل الإسلام، ولكنه لم يهتم قط بالمحاكاة الحركية لهذه الكائنات، كما نرى في الفن الإغريقي والفنون التي سارت على هديه.وبالرغم من أن القرآن الكريم لم يرد فيه نص صريح يمنع ممارسة تصوير الكائنات الحية إلا أن البعض يجدون أن رسم الكائنات غير جائز.

ولقد جاء في القرآن الكريم في سورة المائدة – آية ٩٠- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " صدق الله العظيم. وهذه الآية الكريمة تعني أن الدين يحرم اتخاذ التماثيل والصور أنصابًا تعبد من دون الله، والحقيقة أن الكثير من المفسرين استقروا على أن الإسلام ليس ضد الصورة ولكنه ضد الوثن ويقول الشيخ محمد عبده في هذا الصدد: "وبالجملة يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد التحقق أنه لا خطر منه على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل".

وعلى ذلك فالعقيدة الإسلامية لم تحرم عمل الصور إذا كان الغرض منها الزينة المباحة أو إقرار حقيقة علمية أو شرعية، ويؤكد ذلك ما تركه المسلمون منذ فجر الإسلام إلى الآن من آثار تزخر برسوم الكائنات الحية التي بعدت عن المحاكاة بعدًا واضحًا.

مخالفة الطبيعة

ومخالفة الطبيعة تأكيد لاتجاه الفكر الإسلامي، والفنان المسلم يواجه الطبيعة لكي يتناول عناصرها ويفكها إلى عناصر أولية ويعيد تركيبها من جديد في صياغة جديدة. وهو لا يفكر في محاكاة الطبيعة لأن هذا هدف لا يسعى إليه ولا يعنيه. ويجمع اليوم الكثير من النقاد على أن الفن يبدأ من حيث يأخذ الفنان في الانصراف عن محاكاة الطبيعة ويفرض عليها وزنا وإيقاعًا من عنده.

تحويل الخسيس إلى نفيس

من المسلمات في العقيدة الإسلامية العزوف عن الإسراف في بهرج الحياة باعتبار ذلك عرضا زائلا وما عند الله خير وأبقى، وإلى جانب ذلك فقد وصل ازدهار الحضارة الإسلامية في كثير من العصور إلى درجة عظيمة كما وصل الثراء إلى حد يفوق كل تصور، وكان في استطاعة المسلمين لو أرادوا أن يزينوا الأجزاء المهمة في المساجد بالأحجار نصف الكريمة واستعمال الذهب والفضة في الحياة اليومية، وهنا نجد ظاهرة اجتماعية اقتصادية تحتاج إلى حل يحقق المواءمة والتوافق بين روح العقيدة وسلوك السلف الصالح، بين إمكانيات المجتمع وقدراته الاقتصادية العالية، وهكذا كان على الفنان أن يحقق هذه المواءمة، وأن يبتكر أسلوبا جديدا لحل هذه المعادلة الصعبة، وقد نجح الفنان المسلم في تحقيق هذه الغاية بابتكار الخزف ذي البريق المعدني (وهو نوع من الخزف لم يُعرف إلا في الفن الإسلامي في ذلك الوقت، ويتيح الحصول على أوانٍ خزفية تصلح بديلا لأواني الذهب والفضة) ويذخر المتحف الإسلامي بمصر بالكثير من نماذج ذلك الخزف ذي البريق المعدني، والذي يعتبر من أرقى أنواع الخزف في العالم، ومن الحلول الابتكارية التي كان للفنان المسلم الفضل في تحقيقها المواءمة بين استيفاء المسجد للعظمة والفخامة، وهو ما تتيحه الثروة المتزايدة في المجتمع وبين ما يتطلبه الفكر الإسلامي في الالتزام بأسلوب السلف الصالح في الحياة البسيطة التي تقوم على صدق الإنسان مع ربه.

فاستطاع الفنان المسلم باستعمال أرخص الخامات إطلاقا كالطين والخشب أن يصنع محاريب المساجد من الخزف أو الخشب أو الجص بعد أن أثراها بالزخرفة والنقش، مما جعل هذه المحاريب قمة في الجمال والجلال. ومن أمثلة المحاريب الإسلامية الرائعة محراب السيدة رقية بالمتحف المصري الإسلامي (العصر الفاطمي – القرن الثاني عشر).

وقد خلَّفت الحضارة الإسلامية نماذج عظيمة القيمة من التحف المعدنية والأثاث وبخاصة من البرونز والمشغول بالزخارف الدقيقة التي تبلغ حد الإعجاز وقيمة هذه التحف لا تعود إلى الخامات التي صنعت منها ولكن مردها إلى قدرات الفنان في الإنجاز ودقته البالغة في التنفيذ .

وحدة الفنون الإسلامية

إن وحدة الفنون الإسلامية التي نلمسها في منتجات وعمائر البلاد الإسلامية من أقصى المغرب في مراكش العربي إلى أقصى المشرق في إيران والهند أمر يدعو إلى الدهشة، ويثير الرغبة في البحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى هذه الظاهرة الفريدة، لأن هذه الأقطار في أصولها التاريخية مختلفة في: اللغة وأصول الجنس البشرى والعادات والعقيدة؛ وبالتالي فهي مختلفة في مظاهرها الحضارية كطرز المباني الدينية والمدنية، وأدوات الحياة اليومية. وقد أجمع الباحثون والدارسون على أن العقيدة الإسلامية التي انتشرت في هذه المنطقة الشاسعة بسرعة غريبة، كانت ذات أثر قوي في تحقيق هذه الوحدة؛ بحيث تغلبت على فوارق الجنس والتقاليد الوطنية المتوارثة. ولعل السر الكامن في قوة وفاعلية العقيدة الإسلامية أنها ليست قاصرة على العبادات؛ وإنما هي نظام للحياة: نظام يقوم على دعامات قوية ومتينة في المثل والقيم والمبادئ. وأن هذه العقيدة تمتد إلى شئون الفكر والآداب والعادات والمعاملات، وهناك عامل آخر هو أن القرآن الكريم أُنزل باللغة العربية، وأصبحت عاملاً مشتركًا ورباطًا مميزًا في كل أعمال الفن، وبخاصة أن كراهية تمثيل الكائنات الحية جعل للغة العربية منزلة خاصة، وهكذا أصبحت اللغة العربية والكتابة عاملين جوهريين في كل ما أُبدع من أعمال فنية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وهناك عوامل أخرى ساعدت على تكوين وحدة الفنون الإسلامية الزخرفية، منها تجميع العمال والفنيين من مختلف البلاد الإسلامية للتعاون في إقامة المنشآت العامة: كالمساجد الجامعة أو قصور الخلفاء؛ فعندما استقرت الخلافة الأموية في دمشق وضع نظام لاستيراد المواد الخام، واستقدام الأيدي العاملة الممتازة من كافة أنحاء الدولة، وكان المعلمون من المصريين والسوريين والفرس والروم يعملون جنبًا إلى جنب يتعاونون في تحقيق حركة البناء النشطة التي كانت تتزايد مع الأيام. ويعتبر المسجد رمزاً للفن الإسلامي؛ فهو مكان بسيط على شكل مربع أو مستطيل مستمد من المسجد الأول للرسول (صل الله عليه وسلم) بالمدينة المنورة، وقد انعكست بساطة العقيدة، وعدم وجود قرابين أو تأليه لشخصيات دينية على المسجد؛ فكان –ولا يزال– بسيطًا في تخطيطه وتجهيزاته، ويُزين بالآيات القرآنية والزخارف النباتية والهندسية المجردة، وأصبحت

مسئولية المهندس المعماري المسلم تأكيد الهيكل البنائي بإثرائه بالزخارف النباتية المجردة والهندسية، والخط العربي بأنواعه. كما حرص الفنان المسلم على إثراء هذه البساطة المعمارية بالتنويع في الخامات المستعملة، فهو عندما يُقسِّم السطوح الموجودة أمامه على جدران المسجد إلى مساحات مختلفة الأشكال يملأ كل مساحة بعناصر زخرفية نباتية مجردة أو هندسية، كما يستعمل الحجر والرخام والجص والفسيفساء وبلاطات القيشاني بحثاً عن القيم الجمالية التي تتميز بها كل خامة، ذلك إلى جانب فتحات النوافذ التي تشكل بدورها علاقة جمالية مع الجدران، وتزين في نفس الوقت بالزجاج الملون الذي يضفي على المكان روعة وجمالاً. هذا الأسلوب لم يكن قاصرًا على المساجد وحدها؛ بل يمتد بزخارفه المتعددة ونوافذه المُحلاة بالزجاج الملون إلى البيوت والقصور وإلى جميع أنماط العمائر الإسلامية، فهو أسلوب عام لكل الإنتاج الفني الإسلامي بما في ذلك المنتجات الفنية الصناعية التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية .

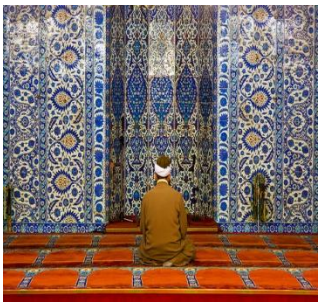

مساجد

المراحل التاريخية لتطور النتاج الانساني:

ولفهم المرحلة التاريخية الاسلامية يجب التوقف على مميزات التطور الفكري والنتاج الإنساني آنذاك من خلال التطور الاقتصادي والاجتماعي ..إلخ

وقد استطاع الباحثون بهذا المنهج تحديد الفنون القديمة بعدة مراحل يحددها الباحثون بثلاث مراحل خلال مسيرة تاريخ الإنسان القديم وصولا للعصر الإسلامي ، وهي **المرحلة الأولى** للفنون وكانت زاخرة بمفردات ونماذج دينية ووثنية كما في الحضارات القديمة في العراق ومصر والشام وإيران...إلخ، واستمرت إلى الحضارات التالية كاليونانية والرومانية وهذه النماذج فرض عليها الهيبة و الاستبداد وكانت المنحوتات على الأغلب ذات صور مادية ومعنوية أو خرافية ، كما نراها تتجلى بوضوح في صور الآلهة ،كآلهة الخصب والتكاثر والشمس و الحرب ،في كل الحضارات القديمة كحضارة وادي الرافدين ووادي النيل ...إلخ ثم جاءت **المرحلة الثانية** فبدأت بظهور الأفكار

الجديدة والمفاهيم التي تبلورت في الفكر الجديد للعقيدة المسيحية، والتي استغلت به المسيحية الإطار الفني الوثني والنماذج الفنية الوثنية، لتعكس مفاهيم الدين المسيحي فمن خلال تلك النماذج النحتية والتصويرية، كالفسيفساء و الفريسكو تم سرد قصة المسيح (ع) ، وإيضاح مفاهيم هذه العقيدة الجديدة وتعاليمها ، فأصبحت الكنائس كأنها إنجيل مصور ، و يتضح ذلك من خلال ما حملته الحضارة البيزنطية في أهم كنائسها وهي كنيسة آيا صوفيا " الحكمة المقدسة " في اسطنبول والتي صارت فيما بعد جامعا ثم متحفا وغيرها من الكنائس المهمة التي تزدان بهذه الأيقونات التي تحكي وتصور قصة المسيح والديانة المسيحية .

وأخيرا **المرحلة الثالثة** و هي ظهور الدين الإسلامي ومفاهيمه التي ترفض كل صور الفن القديم، لأنها تعكس مفاهيم الديانات القديمة،وانبثق بذلك الفن الإسلامي ليعكس العقيدة الإسلامية وكرهها في البداية إلى التصوير والتجسيم خوفا من عودة الوثنية ، ونتيجة هذا الكره انعكست في تطور الزخرفة بكل أنواعها ،فقد أضاف الفن الإسلامي لفن الزخرفة ما أغناه معتمداً على براعة المسلمين في الزخارف الهندسية ، والتي تضافرت مع عدة عوامل لتظهر بالصورة التي أبهرت العالم ، فهي لم تكن مجرد شعور وفن فطري موهوب فقط بل كانت تقوم على علم وافر بالهندسة العلمية ودخول العلاقات الرياضية في العمل الزخرفي ، فأصبح هذا الفن إبداعا بحد ذاته ليأتي من ثم الخط العربي وما حمله من صور جمالية أثرت في الفن الإسلامي و حددت معالمه ،حيث بات من الصعب إنكار دور الخط العربي والزخرفة بتحديد الهوية الإسلامية لهذا الفن والذي أصبح علامة مميزة للفن الإسلامي والمسلمين ، وتأثره بأفكار المرحلة الإسلامية الجديدة إلى أن وصل إلى هذا الأسلوب حيث نراه بوضوح في أهم أعمال فناني المرحلة الوسطى للفنون في أوروبا أمثال ليوناردو دافنشي ، الذي يقال :إنه تعلم كثيراً من الزخارف الهندسية الإسلامية التي كان يقضي ساعات طويلة برسمها .

وقد بلغ من اشتهار الفنانين المسلمين بالزخارف أنه أصبح ينسب إليهم، من قبل مؤرخي الفن العالمي بأن كل أو أغلب الزخارف التي وجدت بعد الإسلام أطلق عليها في الغالب لفظ الأرابيسك نسبة إلى العرب حتى ولو لم تكن عربية. وذلك لاجتهاد الفنان المسلم إلى أن وصل لهذا الأسلوب للتعبير عن مفاهيم ومبادئ عقيدته ، لأن الفن القديم والأساليب الفنية الموروثة تعتبر صورا عن الدين القديم أو الوثنية ، وامتازت هذه المرحلة في رفض كل الصور المتمثلة بالديانات القديمة والوثنية وأراد الخروج بلباس جديد يعكس روح الدين الإسلامي ،التي نراها تتجلى في أبهى صورها من خلال فن الزخرفة والرقش العربي و الارابيسك .

فلسفة الفنون الزخرفية الاسلامية

تقدمة:

أنه بواسطة فن الزخرفة ،والذي شغل مساحة واسعة للتعبير عن أفكار المسلم الجمالية والتخلص من التحريم الذي كان في بادئ الأمر بالنسبة للتصوير والنحت ،تم إنشاء فن إسلامي غاية في الدقة و الجمال أبهر العالم،وعبر عن روح الإسلام ،ومفاهيمه بشكل جميل وراقي ليصبح فن مستقل ونقطة قوة ، مع انه من المعروف إن الكثير من المصادر الإسلامية لم تحرم التصوير و النحت كفنون، بل حرم المغزى والروح التي يريدها الكافر أن تسكن هذه المجسمات ، لذا فالتحريم كان لما تحمله الأعمال الفنية من مفاهيم وليس الأعمال الفنية نفسها .

فالفنان المسلم أراد لفن الزخرفة أن يكون بديعا وجميلا، ليس لأنه مجبر على العمل في مجال الزخرفة والرقش العربي والخط العربي بل لأنه مبدع أصلا وهذه الفنون هي التي أحس بأنها أكثر ارتباطا وانعكاسا للعقيدة

الإسلامية كما إنها ابتكارات خاصة به . ففن الزخرفة لم يكن بهذا الإبداع والروعة ولا بهذه العلاقات الرياضية قبل الفن الإسلامي. ومن ثم ظهر الخط العربي ليطبق بعداً جديداً ومساحة تشكيلية ألهمت الفنان العربي صوراً جديدة للتعبير عن إبداعاته حتى أصبح الخط العربي ميزة إسلامية أخرى بعد الزخرفة خاصة بالفنان المسلم، وانعكس هذا أيضا في فن الرقش العربي ، وتطورت الزخارف مع الخط لدرجة إنها بدأت تأخذ الشكل الإنشائي وتنسجم مع إيقاعات العمارة، والتي نراها تتجلى بوضوح في المساجد . ومن الضروري الإشارة إلى أهم العناصر المميزة للجانب الزخرفي لدى الفنان المسلم وذلك في المواضيع التالية :

١-<u>الخط العربي</u> :-

كان للقرآن الكريم دور غير محدود في تطور الخط العربي ؛ لأن نمو الإسلام في الأصل مرتبط باكتمال القرآن آية فآية وسورة فسورة خلال ثلاث وعشرين سنة الأخيرة من حياة الرسول ، والتي أعقبت نزول الوحي، وكانت الآيات الشريفة تحفظ وتنسخ لتنشر بين المسلمين ، وكان القرآن الكريم يلقن عند نشر الإسلام بين مختلف الشعوب ليس مترجماً بل بلغته الأصلية ، وبذلك أيضاً كان الخط العربي ينتقل إلى جميع الأقطار التي دخلت الإسلام فقد أبدع الفنان المسلم في تمثيله بالخط الكوفي والذي استمر عبر العصور الإسلامية، ويتمثل بشكل زخرفي عريض فوق الجدران الداخلية . وقد لاحظ المستشرق ميسانا في كتابه المعمار الإسلامي في ليبيا ان التشكيك الفطري الذي يضمره المسلم لصور الكائنات الحية انتهى بحبه للكلمة وترجمتها الخطية، وقد أثبتت الكتابات المنقوشة وجودها في الأقطار الإسلامية كعنصر زخرفي منذ البداية ودخلت إلى فن حسن الخط بلغ مستوى الفن المستقل.

ويشير المستشرق هيرتسفلد في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن الفنانين العرب المسلمين قد جعلوا الخط العربي بأنواعه المختلفة ميداناً من الميادين الرئيسية للزخارف فأخرجوا من الحروف وأطرافها أشكالاً وعناصر من الزخرفة تتجمع في كلمات وعبارات لينتج منها كلها موضوعات زخرفية ذات إيقاع فني متناغم وغالباً ما تبرزها عناصر نباتية وهندسية وضعت في خلفيتها لتزيد من جماليتها، وعملت هذه الزخارف على تزين ما أنتجوه من عمارة وزخرفة.

فقد اخذ الخط الكوفي زهوه في القرون الأولى من الدعوة الإسلامية ، إذ ملأت فراغاته بالزخارف ووريقات الزهور .فالاهتمام كان بالخط الكوفي و الخط النسخي أيضا الذي كان في البداية شكل الكتابة العادية .

فالمعروف أن الخط العربي يتكون من قسمين أحدهما كوفي يتميز بزواياه القائمة،وكان مستخدما حتى أخر القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم بعد ذلك صار الخط النسخي يستخدم على الأبنية وفي المناسبات الرسمية.

إن الحروف العربية بالنظر لما تتمتع به من المرونة وجلال المنظر جعلها صالحة للتزين والزخرفة .لكن مع ذلك فمهمة الفنان صعبة إذا ما أراد أن يحقق المثل الأعلى للزخرفة الإسلامية، ومن المفيد أن نذكر أن الخط الكوفي حتى القرن الثالث الهجري لا يقصد فيه أي تجميل أو زخرفة ، ولكن الفنانين في نهاية القرن الرابع تنبهوا إلى استغلال الكتابة للأغراض الزخرفية ، وساعد ذلك في تطور الخط الكوفي .

٢-<u>الزخارف النباتية</u> :-

يقصد بالزخارف النباتية كل رسم يعمل على مسطح بقصد ملء الفراغ بهيئات جميلة ومتناسقة تستريح إليها العين . والزخرفة تكون خطوطاً أو هيئات هندسية أو نباتية أو حيوانية ، ويعتمد جمال الزخرفة في كل الحالات على ذوق صانعها ودرجة سيطرته على المادة التي يزخرفها أو التي يزخرف بها .

وتتصف هذه الزخارف بالاستمرارية، وقد حظيت باحترام خاص مثلما حظيت الخطوط القرآنية ، وذلك باعتبار أن النباتات والأزهار والأشجار بتجردها تمثل براءة الطبيعة ونقاء العقيدة . فقد تأثرت هذه الزخارف كثيرا بالطبيعة وكان الفنانون يستخدمون خامات متنوعة كالجذوع والأوراق لتكوين زخارف تمتاز بما فيها من تكرار وتقابل وتناظر ، وأدى ذلك إلى أن تبدو على هذه الأشغال مسحة هندسية جامدة تدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية عامة .

وطبيعي أن الجانب الأكبر من مجال الزخارف يتأتى من عملية التكرار فهيئة ورقة العنب شكل جميل وإذا رسمنا هيئات ورق العنب متجاورة في صورة متماثلة على أي هيئة كانت حصلنا على زخرفة وهذا ينطبق على أي زهرة أخرى.

٣-<u>التشكيلات الهندسية</u>:-

و تبرز أهمية هذه التشكيلات في إبراز المواضيع بإطارات وحواشي تدخل هذه التشكيلات في تكوينها للابتعاد عن أي فراغ يمتلئ على حساب العقيدة . مما أدى إلى ابتكار الفنان المسلم التراكيب الهندسية ذات الأشكال النجمية المتعددة الأضلاع بشكل استمراري لتشابكات هندسية، **<u>والتشابكات العربية تحتوي على تعقيدات هندسية وكيفيات إيقاعية مفتقدة في شبيهها الروماني والاغريقي، كما وان الفراغ المملوء والمساحات الخالية أي التصميم وأرضيته في التشابكات العربية لها قيمة متعادلة مع الأخرى ومتوازنة. إن استمرارية التشابكات، تدعو العين إلى تتبعها وتحولها الرؤية حينئذ إلى خبرة إيقاعية مصحوبة برضاء ذهني من خلال انتظام هندسي.</u>**

وقد تطورت هذه التشابكات الهندسية والتشكيلات المتداخلة مع الخط العربي إلى أن أظهرت لنا جليا فن الرقش العربي و الأرابيسك ،فقد وصل هذا الفن إلى ذروته في العهدين السلجوقي والفاطمي وفي عهد المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس،و بهذه المميزات يمكن أن نتلمس تعريف ما يسمى بالفن الإسلامي، ومبادئه الأساسية المتجلية في الصورة البصرية في هذا النوع من الفنون تبقى مستقلة عن الواقع وهي نزوع مستمر للتحرر من الدلالة المحددة و سعي نحو التعبير المجرد و المطلق ، ذلك لأن هذا الفن يخضع لقوانين روحية بحتة تتعلق بالوجود و الأزل ، و الرقش العربي يعبر عن ترابط انساني اجتماعي ، وكما يقول الباحث المستشرق (جاك بيرك) إن الرقش العربي هو تركيب وتلاقي ففيه يتلاقى هدف الفنان مع الإدراك الحسي و مع المادة مرتبطاً بالمجتمع معبراً عن ذلك بخصوصيته العربية وليس الرقش العربي زخرفة فقط كما كان يسمى أحياناً عندما تضاربت الآراء حوله .. بل هو (فن حي ابداعي) يقول غرابار المؤرخ و عالم الاثار : ليس الرقش العربي مجرد زخرفة بل كانت له دائماً وظيفة رمزية ففي جميع أنواع و أشكال (الرقش) سواء كان هندسياً أو نباتياً فإن هذا الفن يبدو وقد أخضع كلياً لمبادئ تجريدية هي في قمة جميع مراتب التعبير الجمالي العربي وهذا يعني أننا نقف أمام بنية متحركة وليست ساكنة و أمام قالب يولد جملة تكوينات متآلفة ومنسجمة ، ويعتبر (الرقش) قمة الفن العربي ولقد اكتمل بعد أن انتقل عن الزخرفة أو تولد من تحوير الكائنات أو النباتات أو من تركيب أشكال هندسية ثم وصل إلى التكوين المتآلف مضموناً وتشكيلاً ولوناً وتختلف الزخرفة عن الرقش فقد بدت أولاً محاولة عفوية كتزيين الأشياء الاستهلاكية وتزويقها فكانت أمام المزخرف فرص لا حد لها لاستلهام الجمال أو لتطوير الأشكال المجردة وقد بدت الزخرفة مبسطة و بدائية و الزخرفة لا تنتمي إلى أي جمالية محددة وهي بالتالي لا تعبر عن شخصية فنية متميزة فقد تكون أحياناً مجرد استلهام من أشكال غير محددة أي قد تكون جاءت عفوية أو قد تكون نقلاً عن زخرفة غريبة ، أما

الرقش فهو الفن العربي الابداعي الذي يعتمد كلياً على خلفية فلسفية وعقائدية في آن واحد مما يجعل هذا الفن من خصائص العرب و المسلمين ولا يمكن أن يختلط الرقش العربي الاسلامي مع غيره من صيغ الفن في العالم .

و يكفي أن نلقي نظرة لكي نميز (الرقش) العربي من بينها ، حاملاً صيغة ثابتة ومتفردة بل وموحدة في جميع أشكال الفن غير المشبه مما أنتج في مختلف العصور الاسلامية وهو بشكل عام إما أن يكون هندسياً أو نباتياً ، فهو هندسي عندما تبدو الصورة على شكل أشعة تصدر عن مركز محدد ، على شكل وميض متناوب ، و يسمى في هذه الحالة الرقش (الخيط) أو تكون مستوحاة من الأزهار و الأوراق على شكل صيغ متناسخة مكررة بصورة أفقية ، ويسمى هذا الرقش (البناتي) ولهذا الرقش عادة ما تكون في شكله خلفية روحية تقوم على الوجود ففي الصورة الهندسية الاشعاعية على سبيل المثال نرى صورة الكون في نسيج متشابك بقوة ليعطي معنى وحدة الوجود في ذروته المتمثلة (بالخالق) هو الأول و الآخر فالخيوط تجري بحركة (جاذبة ونابذة) تنطلق من أشكال نجمة أولية ، ذات معان روحانية وفلسفية في آن واحد أما في الصورة النباتية تجري الصيغة مكررة أو متطورة لا نهاية لها ولا بداية فهي تسعى إلى توحيد (الخالق) في تسبيح مستمر أو في ذكر دائم لاسم (الله) ولهذا فإن (الرقش) عمل رصين وجاد إلى أبعد الحدود وعلى (الرقاش) أن يتجه في كل حواسه وكيانه الوجداني إلى (الله) إضافة الى ذلك يقوم الرقش الهندسي على فكرة سرمدية – سرمدية النسيج الوميضي– ، و أن (الله) سيد الكون هو مصدر هذه السرمدية و يتمثل برمز صوفي و كثيراً ما يمثل هذا التصور على شكل نجمة (سداسية أو ثمانية أو خماسية) أو من مضاعفات هذه الأشكال ، و يبدو من هذا أن التجريد الأصيل في الفن العربي الإسلامي مختلف عن التجريد المعاصر في شكله كما في مضمونه ، فالتجريد في الرقش العربي هو تعبير عما هو روحاني أو إلهي ،و لكن التجريدية الحديثة إنما ترتبط باللاشيء ... و الخط العربي قد يخرج أحياناً عن أصوله وقواعده لكي يصبح زخرفة بحد ذاته وهي عملية تحوير طوعي للخط ، حيث تبدو الكتابة المقروءة ، وقد أصبحت (رقشا) وقد نرى الخط وقد أصبح صيغة جديدة دون أن تكون الكتابة هي المقصود بذاتها.

وعليه تتميز الزخرفة الإسلامية بالايقاع البصري المتكامل، لخلق توازن متكامل ضمن القواعد والأسس المتبعة في الزخرفة وهي:_

- **التوازن** :– وهو حسن توزيع مفردات وعناصر العمل الفني وتناسق العلاقات ببعضها وبالفراغات المحيطة بها وأرضياتها.
- **التناظر** وهو تطابق نصفي العمل الفني
- **التشعب** وهو انتشار التكوينات الزخرفية بوحداتها نحو الخارج.
- **التكرار** وهو تكرار عناصر الوحدات الزخرفية ليتكون العمل الفني الزخرفي.
- **التناسب** وهو تناسب أجزاء العمل الفني الزخرفي .
- **التشابك** وهو تداخل الوحدات الزخرفية مع بعضها .

طرز الزخارف الاسلامية ومراحل تطورها :

بعد أخذت الزخرفة الاسلامية مصادرها الأولى من عدة حضارات كالإيرانية والبيزنطية والهندية.. إلخ لتتزاوج مع فكر وحضارة الإسلام ليخرج فن زخرفي خاص له ملامحه وشخصيته التي أصبحت عالمية . وتؤكد الدراسات وعلماء الآثار أن المصادر الأولى للزخرفة الإسلامية نبعت من بلاد ما بين النهرين، أرض العراق في الفترة العباسية

من مدينة سامراء، وذلك ضمن دراسات أجريت لمعرفة مراحل تطور الزخرفة الإسلامية، فوجدوا أن هذه الآثار الزخرفية كانت مصنوعة من الأتربة الكلسية أو الجصية وقسمت من حيث أنواعها وتطورها إلى ثلاثة طرز :-

❖ **الطراز الأول أو الطراز القديم :-**

وهو الأسلوب الذي كان متبعاً في الزخرفة قبل الإسلام، وأسلوب حفرها هو الحفر العميق، أما زخارفها فهي الزخارف الطبيعية، ولاسيما أوراق العنب وعناقيده المرسومة والمحفورة داخل أشكال هندسية،وهذه الزخارف كانت معروفة قبل بناء مدينة سامراء وكانت منتشرة في الفترة المسيحية كرمز للديانة المسيحية والمعتنقين لها، كما كانت ترمز إلى الإله ديونيسوس Dionysus أو باخوس ،وذلك في المرحلة اليونانية والهللينستية والرومانية.

❖ **الطراز الثاني الانتقالي :-**

وهنا نرى الفنان المسلم أصبح تجريديا أكثر من قبل ومبسطا للعناصر الزخرفية وكان أسلوب الحفر أيضا الحفر العميق، أي ظل على نهج الطراز السابق وبقيت الزخارف ترسم وتحفر داخل الأشكال الهندسية ليلعب الضوء والظل في هذه الأشكال مما يضيف للعمل الزخرفي جمالا زخرفيا .ولنوضح أن الرسم كان ينفذ بالة مدببة أو قلم ثم تحفر الأرضية حفراً أعمق لتبدو الزخارف بارزة ، و الطراز الأول و الثاني لهما خاصية التجريد في تناول العناصر النباتية ، والطراز الثاني يميز بسهولة ،لما يمتاز به من تسطح فالخلفية أصبحت ضئيلة .

❖ **الطراز الثالث :-**

وهو الطراز الذي يتكون به بوضوح الاتجاه الفني للزخرفة الإسلامية ، فهنا بدأ ازدياد الإبتعاد عن الطبيعة وأصبحت الخطوط المنحنية والحلزونية تظهر إلى درجة يصعب على الإنسان إدراك الصلة بينها وبين العناصر النباتية، فبدأت العناصر الزخرفية تستقل بذاتها بعد أن كانت متصلة في ما بينها ، والعناصر الزخرفية هي كيزان الصنوبر و الأوراق النخيلية، وعناصر المزهريات وأوراق العنب وعنصر الجامة. وهذا الطراز يصنفه المستشرق ديماند على أنه أقدم الطرز الزخرفية ، على عكس الكثير من الباحثين،ويميز هذا الطراز بسهولة عن باقي الطرز الزخرفية وذلك لاستخدام الفنان المسلم طريقة الحفر المشطوف أو المائل BEVELED STYLE ،وذلك باستخدام القوالب الطينية في عمل الزخرفة وصبها بعد ذلك على ألواح الجبس لتثبت على الجدران التي كان يشوبها بعض التشويه،واستخدام القالب جاء من الفنون الإيرانية ، ولكن المسلمين اهتدوا لمعالجة هذا التشّوه بأسلوب الحفر المشطوف . والبروز مختلف الدرجات .

التصوير:

يختلف التصوير الإسلامي عن التصوير المعاصر الذي يتميز بخصائص واضحة من حيث الخامات واستعمالها وطريقة الأداء والموضوعات ... ويتحقق في فن التصوير الإسلامي مثالية الفن الإسلامي كاملة فالصور ذات ألوان مضيئة والأشكال الآدمية والحيوانية مرسومة من غير تجسيد والأشجار والجبال والمنازل وما إلى ذلك منسقة ومبسطة من حيث الشكل العام وتزخر بالزخارف النباتية والهندسية وهذا الأسلوب يكسب الصورة الأناقة والجمال والخيال الساحر الذي لا نظير له ولفن التصوير الإسلامي مجالات كثيرة منها:

أ- التصوير الجداري :

تزخر كتب المؤرخين بأحاديث عن الصور الجدارية التي كانت تزين القصور والحمامات في جميع العصور الإسلامية على إن الأمثلة الموجودة الآن للتصوير الجداري الإسلامي قليلة بالنسبة للصور الجدارية التي تجدها في الفنون الأوروبية.

وفي جميع الصور الجدارية الإسلامية نجد أن الفنان لم يراع دقة تمثيل المظهر الطبيعية وهي لهذه الأسباب تعبير صورا زخرفية أكثر منها توضيحية بموازنة هذه الصور بالصور الحائطية (الفرسكو) التي نفذت في أوروبا في عصر النهضة بفارق الأسلوبين ففي عصر النهضة كان الفنان يهتم بالمظهر الطبيعية للأشكال بحيث تبدو وكأنها انتزعت من الطبيعة انتزاعا . ومن أمثلة الصور الجدارية الإسلامية ما عثر علية في قصر عمرة في بادية الشام (العصر الأموي) وفي قصر الحير الغربي الذي بناه هشام بن عبدالملك وفي قصر الجوسق الخاقاني بسامراء وفي الحمامات الفاطمية بالقاهرة وكانت هذه الصور تعبر عن موضوعات مختلفة تناولت الأشكال الآدمية في تكوينات زخرفية بديعة.

من قصر عمرة

من قصر الحير الغربي

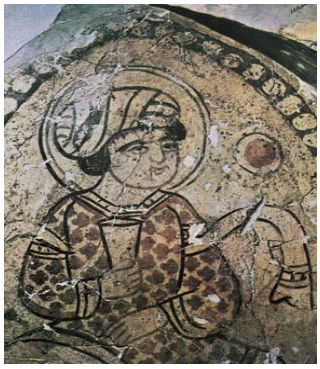

من قصر الجوسق الخاقاني

ب- صور الفسيفساء :

عثر في المسجد الأموي بدمشق على مجموعة من صور الفسيفساء تمثل المناظر الطبيعية لمدينة دمشق فالأشجار والمباني ونهر بردى منفذة بأسلوب زخرفي بسيط وألوانه ساطعة وقد لوحظ أن هذه خالية من الأشكال الآدمية والحيوانية بينما نجح الفنان في توزيع كتل المباني بأحجامها المختلفة بحيث وصل إلى تحقيق التوازن الفني في الصور.

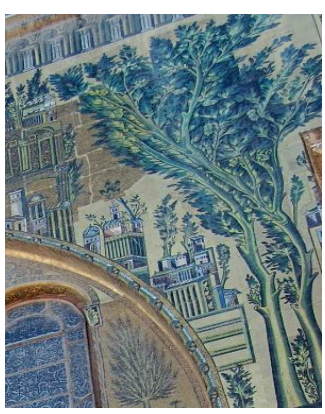

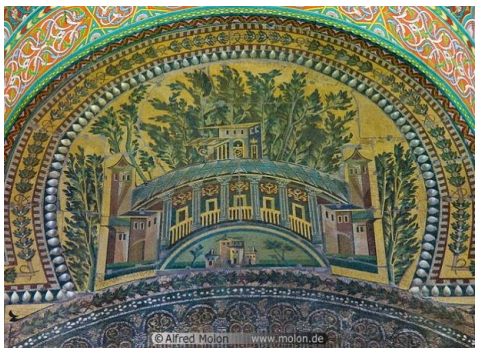

فسيفساء المسجد الاموي في دمشق

الطرز الإسلامية

تتميز الفنون الإسلامية بأن هناك وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن تتميز أي قطعة أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي، ولعل هذا السر من أسرار تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفائقة على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار بصبغة واحدة، على أن هذه الوحدة لم تمنع من وجود طرز إسلامية تتميز بها الأقطار الإسلامية المختلفة في عصور تطورها الفني.

ويمكننا أن نقول بوجه عام: إن الطراز الأموي ساد العالم الإسلامي أولاً متأثرًا بالفنون المحلية، ثم ساد الطراز العباسي منذ قيام الدولة العباسية عام ٧٥٠م، وعندما ضعفت الخلافة العباسية منذ القرن السابع الميلادي سادت طرز أخرى إقليمية فكان هناك الطراز الأسباني المغربي في شمال أفريقيا والأندلس، وطراز مصري سوري في مصر وسوريا، وطراز عثماني في تركيا والبلاد التي كانت تتبعها، ثم طراز هندي في الهند.. ومن واجبنا أن نكون على معرفة بهذه الطرز الفنية، وكيف تميزت بميزات خاصة في إطار الوحدة الفنية الإسلامية الكبرى.

١-الطراز الأمَـوي:

كانت العناصر الزخرفية لهذا الطراز مزيجًا من جملة عناصر ورثها عن الفنون التي سبقته، فبينما تظهر فيه الدقة في رسم الزخارف النباتية والحيوانية، ومحاولة تمثيل الطبيعة وغير ذلك مما امتازت به الفنون البيزنطية، نجد تأثير الفن الساساني في الأشكال الدائرية الهندسية وبعض الموضوعات الزخرفية الأخرى كرسم الحيوانين المتقابلين أو المتدابرين تفصلها شجرة الحياة المقدسة أو شجرة الخلد.

الجامع الاموي

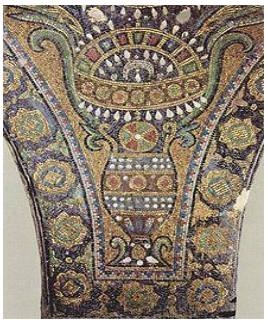

مسجد الاقصى

٢-الطراز العباسي :

ويمتـاز الطـراز العباسـي، كمـا تمتـاز الأسـاليب الفنيـة المـأخوذة عنـه ومنهـا الطـراز الطولـوني فـي مصـر، بنـوع مـن الخـزف لـه بريـق معـدني كانـت تصـنع منـه آنيـة يتخـذها الأغنيـاء عوضـا عـن أوانـي الـذهب والفضـة التـي كـان اسـتعمالها مكروهـا فـي الإسـلام لمـا تـدل عليـه مـن البـذخ والتـرف المخـالفين لـروح الـدين الإسـلامي. هـذا فضـلاً عـن اسـتخدام الجـص بكثـرة فـي تهيئـة الزخـارف حتـى أصـبح مـن المـواد ذات الصـدارة فـي هـذا الطـراز الإسـلامي.

كمـا أن طريقـة حفـر الزخـارف فـي الخشـب أو الجـص اتخـذت طابعًـا خاصًـا كـان وقفًـا علـى هـذا الطـراز دون غيـره وهـى طريقـة الحفـر المائـل أو منحـرف الجوانـب.

والخلاصـة أن الموضـوعات الزخرفيـة التـي تتمثـل فـي هـذا الطـراز يظهـر فيهـا التحـوير

والتنسيق والبعد عن الطبيعة وتنحصر عناصرها في الأشرطة والجدائل والأشكال الحلزونية والخطوط الملتوية وكلها مرسومة بوضوح وحجم كبير.

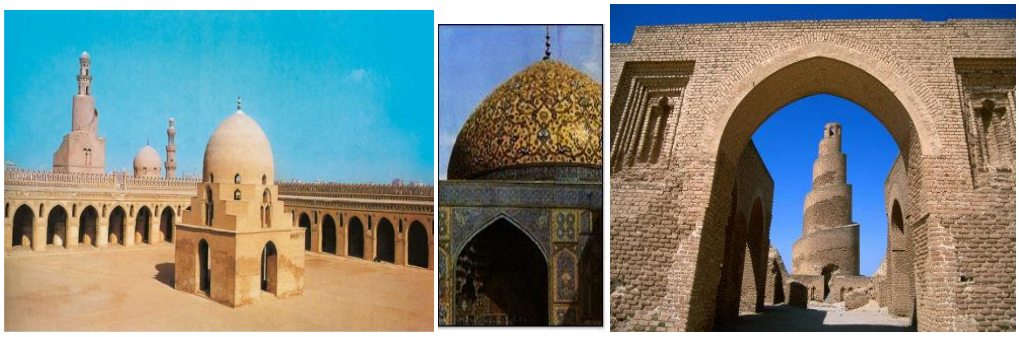

عمارة من العصر العباسي

٣-الطراز الإيراني :

امتازت إيران في الفنون الإسلامية بالمحافظة على قسط وافر من أساليبها الفنية القديمة، ومن ميل إلى رسوم الكائنات الحية والزخارف النباتية الرشيقة، ومن ثم يمكن اعتبار هذا العصر من الناحية الفنية أقوى العصور في إيران على الإطلاق.

وذاع صيت إيران في إنتاج المصاحف الفنية الفاخرة، وتذهيب صفحاتها الأولى والأخيرة، فضلا عن رؤوس السور وعلامات الأحزاب، وقد نجح المذهبون في دقة مزج الألوان، وإتقان الرسوم الهندسية والفروع النباتية اتقانًا يبدو فيه التوازن والتماثل، فأصبحنا نرى السجاجيد الثمينة، ذات الألوان الفنية والرسوم المختلفة، التي تشبه رسوم المخطوطات. كما ظهرت أنواع من الخزف ذي البريق المعدني، أما التحف المعدنية في الطراز الصفوي، فقد غلبت عليها رسوم الفروع النباتية والصور الآدمية والحيوانية.

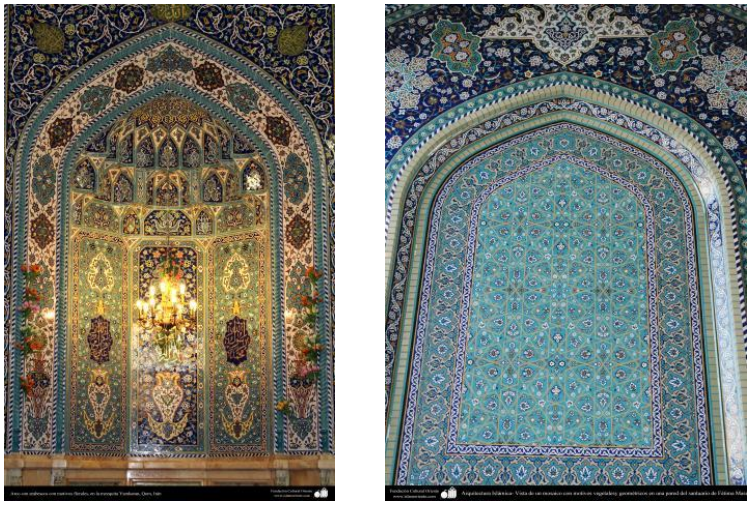

من مسجد نايين

٤-الطراز الفاطمي :

فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) واتخذوها مقرًا لخلافتهم فقام على يدهم الطراز الفاطمي وازدهر في مصر والشام.

وقد وفق الفاطميون في دقة التصوير والحركة دقة لم يصبها الفنانون في مصر من قبلهم، كما كثر رسم الإنسان والحيوان على التحف التي ترجع إلى عصرهم، وازدهر فن التصوير، أما المنسوجات الفاطمية فقد كانت عناية الخلفاء بها عظيمة، كما أصاب النساجون أبعد حدود التوفيق في توزيع ألوانها واختيارها حتى صارت منتجاتهم آية في الجمال والإتقان ، والخشب لدينا من تنوع الزخارف وجمال الصناعة، ما لم يصل إليه الفنانون بعد ذلك، وحسبنا محراب السيدة رقية والأبواب الفاطمية الضخمة المزينة برسوم آدمية وحيوانية وطيور، وقد تحفر الرسوم أيضا على مستويين مختلفين، وهو أسلوب يدل ولا شك على براعة الفنان ومهارته.

٥-الطراز المملوكي:

يعتبر عصر المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ (١٢٤٠-١٥١٧م) من أزهى العصور في تاريخ الفنون الإسلامية في مصر، فقد كان الإقبال عظيما على صناعة التحف النفيسة كما طغت الثروة الفنية على منتجات هذا الطراز من مختلف المواد.

وقد كان لصناعة التحف النحاسية المرصعة بالذهب والفضة منزلة خاصة لدى المماليك، هذا إلى جانب بعض الزخارف الهندسية متعددة الأضلاع ومن بينها أطباق نجمية مملوكية.

وأبدع ما وصل إليه صناع الزجاج المسلمون في العصر المملوكي يتجلى في المشكاة المموهة بالمينا، وأشكال هذه التحف الزجاجية وأحجامها وهيئاتها.

وذاعت في العصر المملوكي زخرفة الحشوات بالتطعيم، وذلك بإضافة خيوط أو أشرطة رفيعة من العاج أو الخشب النفيس كانت تكسى بها التحف المختلفة، كالأبواب والمنابر،

وازدهر في عصر المماليك الخط النسخ واحتل مركزًا ساميًا وصار من أهم العناصر الزخرفية على التحف من معدن وخزف وعاج ونسيج، كما استخدموه في كتابة المصاحف المملوكية التي كانت تكتب للسلاطين لتوقف بأسمائهم في المساجد.

٦-الطراز المغـربي :

يبـدأ الطـراز المغربـي الصـحيح فـي الأنـدلس والمغـرب علـى يـد دولـة الموحـدين، ويلاحـظ أن الزعامـة الثقافـة فـي العـالم الإسـلامي المغربـي كـان مركزهـا فـي الأنـدلس فـي عصـر الدولـة الأمويـة الغربيـة وفـى عصـر ملـوك الطوائـف، ثـم انتقلـت هـذه الزعامـة إلـى مـراكش فـي نهايـة القـرن ١١م.

ومـن أبـدع العمـائر التـي خلفهـا لنـا هـذا الطـراز قصـر الحمـراء بغرناطـة الـذي يعـود إلـى القـرن الرابـع عشـر المـيلادي، ويمتـاز بجمـال مبانيـه ورشـاقة أعمدتـه ذات التيجـان المزخرفـة بالمقرنصـات، والجـدران المغطـاة بشـبكة مـن الزخـارف الجصـية والكتابـات الجميلـة.

ومـن المنتجـات الفنيـة التـي ازدهـرت فـي الطـراز المغربـي تجليـد الكتـب وصـناعة التحـف الجلديـة عامـة، أمـا صـناعة الخـزف فقـد ازدهـرت فـي الطـراز المغربـي أيضًـا. ويعتبر الطراز المغربي أقرب الطرز إلى الطراز المملوكي.

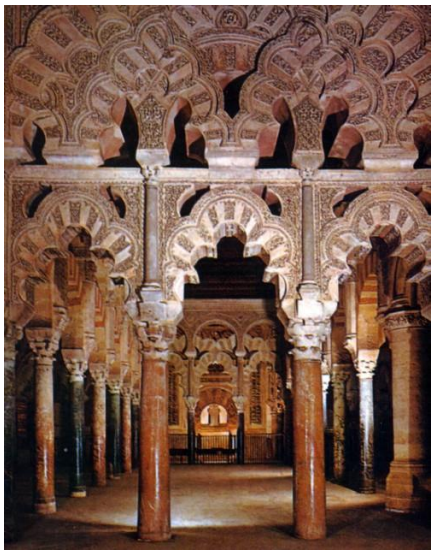
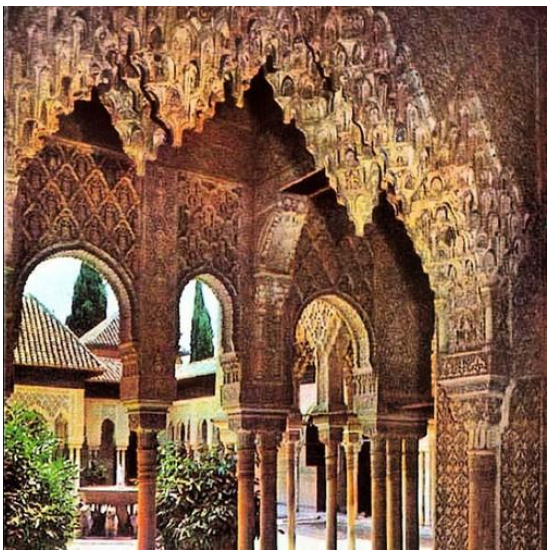

٧-الطراز التـركي:

سـقط السـلاجقة فـي القـرن ٨هـ/ ١٤م، وآل الحكـم فـي آسـيا الصـغرى إلـى آل عثمـان الـذين اسـتطاعوا الاسـتيلاء علـى القسـطنطينية سـنة ٨٥٧هـ /١٤٥٣م، ولعـل خيـر مـا أنـتج التـرك مـن

أنواع الفنون تظهر واضحة فيما خلفوه من تحف الخزف والقيشانى والسجاد والأقمشة الحريرية والقطيفة والمخطوطات.

أما الخزف التركي فيمتاز بألوانه الجميلة وما فيه من رسوم الزهور والنباتات، أما السجاجيد التركية فهي تعد بحق من أبدع الفنون الشرقية، والتي تمتاز بالزخارف الهندسية البحتة، وسجاجيد الصلاة الصغيرة النفيسة ويمتاز معظمها برسم محراب في أرض السجادة.

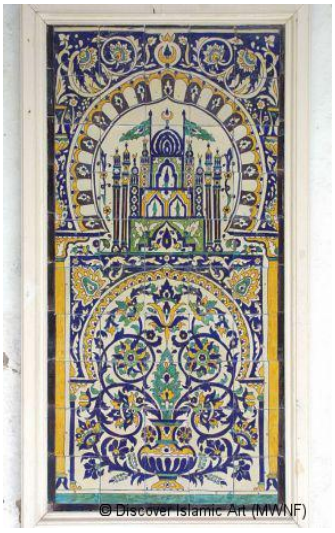

٨-الطراز الهندي :

يعتبر الطراز الهندي أقرب الطرز إلى الفن الفارسي، وقد تبلورت شخصية الطراز الهندي اعتبارا من القرن السادس عشر، وأصبح له طابع مميز وظواهر معمارية خاصة، أما التصوير فقد امتاز بهدوء الألوان والقرب من الطبيعة ورسم الصور الشخصية، وتمتاز العمائر الهندية باستخدام العقود الفارسية، والمآذن الأسطوانية، والقباب البصلية، والزخارف الدقيقة.

تاج محل

وهكذا وعلى مر كل تلك العصور نجد أن الفن الإسلامي كان يتميز دائمًا بأنه فن يخدم الحياة في كل أساليبه وطرقه، وأنه خلق لأجل متعة الإنسان المسلم، ولأجل تذوقه للقيم الجمالية أينما كان، ولهذا ظلت الفنون الإسلامية باقية معنا حتى يومنا هذا نستخدمها في حياتنا ونتمتع بما بقي من آثارها السابقة من عمائر وتحف وأوانٍ ذات قيم جمالية وفنية عالية .